الإسنـاد فى الحـديث

بحث ينسف السُنّة من أساسها

الكاتب: أحمد صبحي منصور

الفهرس

مقدمة

فى عصر الخليفة المأمون كان الشاعر العتابى يسير فى شوارع بغداد، فدخل السوق وهو يأكل الطعام ،وكان ذلك يخالف المروءة أو «الاتيكيت» لدى ارباب الطبقة العليا،ولذلك احتج عليه صديقه قائلا «أتأكل الطعام فى السوق ويراك الناس؟» فقال له العتابى ساخرا: «وهل اولئك ناس؟انهم بقر»،

فاحتج صديق العتابى وزمجر،فقال له العتابى: «سأريك ان كانوا ناسا أم بقرا»

ثم صعد الى الربوة ونادى فى الناس «ياقوم هلموا أحدثكم عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم)،فتدافع اليه الناس واجتمعوا حوله، وأقبل يحدثهم يقول:روى فلان عن فلان عن فلان ان رسول الله.(صلى الله عليه وسلم) قال.
وظل يخرج من حديث إلى أخر وقد تعلقت به العقول والقلوب والعيون، وسيطر على المستمعين، إذا حرك يده يمينا تحركت رؤوسهم يمينا، وإذا أومأ برأسه يسارا إلتفتوا يسارا ، إلى أن قال لهم ...

وروى غير واحد (اى أكثر من واحد) أنه صلى الله عليه وسلم قال : (إذا بلغ لسان أحدكم أرنبة أنفه دخل الجنة)

وسكت...

فاذا بكلّ واحد من المستمعين يخرج لسانه يحاول ان يصل به إلى أنفه، وأصبح منظرهم جميعا مضحكا، فالتفت العتابى إلى صديقه ساخرا وقال: «ألم اقل لك أنهم بقر؟».

ما الذى جعل عقول أولئك الناس تغيب حتى تتدلى السنتهم وهم سكارى غائبون عن الوعى؟
انه التصديق ، التصديق والإيمان بأن مايقوله العتابى قد قاله النبى (صلى الله عليه وسلم) فعلا.

وما الذى جعلهم يؤمنون ويصدقون بأن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد قال ذلك الكلام؟
إنه الإسناد .. أى أسند أو نسب ذلك الكلام للنبى (صلى الله عليه وسلم) عبر العنعنة، أى قال حدثنى فلان عن فلان عن فلان...الخ..ان النبى (صلى الله عليه وسلم) قال.

وهذا معنى الإسناد، وهذه هى خطورته على العقل.

أولا : تغييب العقل

حسنا...دعنا نتخيّل أن العتابى يسير الآن فى شوارع القاهرة ويركب المواصلات. ويرى شيخا يصعد الأتوبيس يدعو المسلمين للتبرع لإنشاء المسجد الفلانى ويستشهد بالحديث المشهور (من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا فى الجنة) ويرى العتابى كيف يُسارع الناس الطيبون بالتبرع حتى يضمن كل منهم لنفسه قصرا فى الجنة!

هل تريد أن تتوقع تعليق العتابى؟ إذن استحضر عقلك ولا تعطه إجازة، وتفكر في معنى ذلك الحديث المنسوب كذبا للنبى عليه الصلاة والسلام... أنه يؤكد على أن كل من بنى لله مسجدا بنى الله تعالى له قصرا فى الجنة، مهما كان الشخص مؤمنا أو كافرا، ومهما كان مصدر المال طيبا أو خبيثا، يعنى أن السيد هتلر من حقه أن يكون له قصور في الجنة إذا بنى بضعة مساجد، ويعنى أيضا أن كل مختلس وظالم وناهب لأموال الناس يستطيع إذا بنى ببعض أمواله الحرام مسجدا أن يدخل الجنة...هل يتفق ذلك مع تشريع الاسلام؟

ثم ان هذا الحديث الذى يبيع قصور الجنة لكل من يتبرع ببناء مسجد يحدد لنا منذ البداية اقل مساحة مقبولة للمسجد،يقول ((من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة))اى يكون مساحة المسجد كقدر ما تتحرك به ساق القطاة حين تفحص بساقيها الارض.والقطاة هى طائر صغيرة الحجم .

أى من بنى لله مسجدا ولو كانت مساحته فى مثل هذا الصغر بنى الله له قصرا فى الجنة حتى لو كان من مال حرام، ومهما كانت شخصية ذلك المتبرع ،وحتى اذا كان ذلك المسجد لايستطيع دخوله الا النمل والصراصير الوليدة....هل يعقل ان يتكلم النبى (صلى الله عليه وسلم) بهذا الكلام؟!!

ولكن ذلك الحديث تم إسناده أو تمت نسبته للنبى عليه الصلاة والسلام، ورواه ابن ماجه فى «مسنده» عن فلان عن فلان. وآمن الناس بصحة ذلك الإسناد. ومن هنا فإن ذلك الحديث الكاذب هو المسئول عن إقامة 38 ألف مسجدا وزاوية فى القاهرة الكبرى فى العشرين سنة الماضية، وكلها تنشر ثكلها تنشر ثقافة التطرف عبر أحاديث مسندة أو منسوبة للنبي (صلى الله عليه وسلم) زورا، وهى تخالف القرآن والسنة الصحيحة للنبى عليه الصلاة والسلام. وبدلا أن تتوجه أموال الصدقات لبناء مساكن للشباب والعائلات التى تسكن المقابر، فإنها توجهت لبناء مساجد إيديولوجية تزيد عن حاجة المسلمين الذين يستطيعون الصلاة فى كل مكان. ومع العلم بأن حق إبن السبيل فى تشريع الإسلام ثابت فى الزكاة الرسمية والصدقة التطوعية والفيء والغنيمة، ولا يصح الإلتفات لرعاية أبناء السبيل من الأغراب إلا بعد ضمان المسكن والطعام لأبناء البلد. فكيف اذا كان أبناء البلد أنفسهم لايجدون السكن بحيث ضاعت أحلام الشباب فى الزواج وأصبحت العنوسة أزمة مستفحلة... ومع ذلك تفاقمت تلك المشكلة لأن أموال الصدقات استنفذها أرباب الصحوة السلفية فى بناء عشرات الألوف من المنابر التى تؤسس لدولتهم القادمة! ومن دعائم تلك الدولة ثقافة التراث للعصور الوسطى، تلك الثقافة التى أصبحت مقدسة عبر الإسناد، أو عن طريق نسبتها زورا للنبى عليه الصلاة والسلام ...مهما خالفت العقل والإسلام.

إن الإسلام الصحيح هو دين العقل، بل أن «التعقل» أو استعمال العقل هو سبب إنزال القرآن (يوسف 2،الزخرف3) ولكن الإسناد أوجد خصومة مستحكمة بين المسلمين والتعقل، بحيث يكفى أن يصعد أي محتال ليقول ((قال رسول الله)) فيسارع الناس بتصديقه ويمتثلون لما يقول دون أي تفكير، لافارق فى ذلك بين مثقف أو عامي، وسواء كان ذلك فى المسجد أو فى وسائل الإعلام أو وسائل المواصلات...اى فى كل زمان ومكان أنت محاصر بالإسناد يا ولدي.

ثانيا : الإسناد قضية علمية

منذ عشر سنوات تقريبا جائنى صديق منزعج، قال أنه فوجئ ببلدته بالصعيد وقد سيطر عليها الشباب السلفى وأعادوها لما كان عليه السلف، ومن ذلك أنهم أوجبوا على العريس ليلة الدُّخلة أن يحمل عروسه إلى بيته وهى داخل زكيبة أو شوال، لأن ذلك ماجاء فى السنة والأحاديث...فقلت له إنهم قرءوا خطأ ذلك الحديث القائل بأنهم كانوا يدخلون بالنساء فى شهر شوال. وكانت نكتة هائلة. وعاد صديقى الى أهل بلدته فى الصعيد وقرأ لهم الحديث بالتشكيل الصحيح، وأنقذ بذلك بنات القرية من تجربة التعبئة فى الأشوال والزكائب....إلا أن مشكلته معى لم تنته.

لأن صديقى اصبح يعتقد بوجوب أن يتم الزفاف فى شهر شوال دون غيره من الأشهر، طالما أن إسناد الحديث صحيح للنبى حسب اعتقاده. وسئمت من النقاش معه فى موضوع الإسناد، فقلت له أخيرا: إذن أنت تؤمن بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ذلك الحديث فعلا؟ فقال في ثبات : نعم. قلت له: وهل تقسم بالطلاق من زوجتك أن النبي قال ذلك؟ عندها بهت وسكت ولم يرفع رأسه...قلت له: هل لو قرأت عليك سورة «**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**» وطلبت منك أن تقسم بالطلاق أن الله تعالى قال ذلك وإنها من القرآن، هل ستفعل؟ قال نعم ...قلت له: هذا هو الفرق بين القرآن وأحاديث التراث .

إذا جاء أحد بآية قٌرآنية فلن تطالبه ببرهان أو إسناد، طالما تؤمن بالقرآن وهو محدد بالسور والآيات، أما إذا قيل لك حديث منسوب للنبي (صلى الله عليه وسلم) فإن من حقك بل من واجبك أن تسأل عن إسناده أو عن دليل نسبته للنبى (صلى الله عليه وسلم). فالقرآن قائم على أساس الإيمان، أما الحديث المنسوب للنبى فهو قائم على الشك. ولعلاج هذا الشك اخترعوا الإسناد، أي أن ذلك الحديث رواه فلان عن فلان...الخ حتى النبي لإثبات أن النبي قال ذلك الحديث إذ كان الإسناد صحيحا، أو لم يقله إذا كان الإسناد ضعيفا. وفي عصرنا لم يعد أحد يهتم إذا كان الإسناد صحيحا أو ضعيفا، فيكفى أن يقال قال رسول الله ليصدق الناس فورا أن النبي قال فعلا هذا الكلام. ونرجع للإسناد الذى يؤكد أن الحديث مثل جدار يريد أن ينقض ويقع فيقوم ((الإسناد)) بإسناده حتى لايسقط ولا ينهار...فالقرآن قضية إيمانية أما الحديث فليس قضية إيمانية، وإنما هو قضية علمية عندهم، تدخل فى باب البحث والإجتهاد وليس فى قضايا العقيدة واليقين، ولذلك اختلف علماء الجرح والتعديل في مدح راوٍ أو تجريحه، وفى إثبات حديث ما أو نفيه، فالإمام مسلم في صحيحه لم يكتف بما قاله البخارى أستاذه ولم يأخذ بكل أحاديثه ولم يترك ما تركه البخاري من أحاديث، فجاء صحيح مسلم مختلفا عن صحيح البخاري، ثم جاء الحاكم فأستدرك على البخارى ومسلم، وقبلهم جميعا كان أحمد بن حنبل مختلفا فى مسنده ثم جاء المتأخرون أكثر اختلافا. ولأنها قضية علمية عندهم تقوم على الإختلاف في وجهات النظر فإن أحدا لم يحكم بتكفير أحد...إذ هي أمور ظنية بحثية إنسانية وليست أمور العقيدة والدين....أما القرآن فهو محل الإيمان والتصديق لكل مسلم، ولذلك فإن الله تعالى يؤكد فى آيتين أن الحديث الوحيد الذى ينبغى أن نؤمن به وحده هو حديث الله تعالى فى القرآن الكريم «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» [الأعراف185 ،المرسلات50]. بل أكثر من ذلك يجعل الله تعالى الإيمان به وحده إلها لاشريك له قرينا بالإيمان بحديث فى القرآن وحده دون غيره، يقول تعالى «**تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**» [الجاثية 6:8].

وفى الوصية الأخيرة من الوصايا العشر فى القرآن الكريم يقول تعالى عن القرآن: «**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوَن**» [الأنعام 153].

فالقرآن أتى من الله تعالى طريقا مستقيما لنتبعه وحده، ولا نتبع الطرق والسبل الأخرى حتى لا نقع في الإختلاف. وفى هذه الآية الكريمة تأكيد على أن القرآن هو المصدر الوحيد للاسلام، فالطريق المستقيم لايكون إلا واحدا وحيدا، وحيث أن الخط المستقيم لا يتعدد فهو أقصر الطرق التى توصل بين نقطتين. أمّا الطُرق الأُخرى فتقوم على الإختلاف والظن والريب، ومن المعلوم أن الروايات والأسانيد لها طرق وسبل متفرقة. ويؤكد علماء الحديث أنها كلها ظنية، أو كما يقول الله تعالى عن القرآن وغيره من الطرق والسبل «**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**» [الانعام 116] وهذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه أنه إذا أطاع أكثرية البشر أضلوه عن القرآن وأبعدوه عنه حيث يتبعون الظن والأوهام.

وهكذا فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) يتبع القرآن وحده. وبذلك تتابعت الأوامر للنبى عليه السلام ولنا عن القرآن «**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**» [الأعراف 2: 3] فهناك أمر ونهي، أمر باتباع القرآن ونهى عن اتباع غيره. حيث أنه وحده الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحيث كان النبي متّبعا للقرآن وحده، وحيث كان خلقه القرآن...وحيث سيتم حساب البشر جميعا يوم القيامة ـومنهم الانبياء ـ على أساس الكتب السماوية وحدها. والكتاب السماوي واحد فى أساسياته، مهما اختلفت اللغات والظروف. وليس فى أي كتاب سماوي ماكان يعرف بالإسناد، وإنما هو كلام الحق تعالى، إن شئت آمنت به وإن شئت لم تؤمن، وحسابك عند ربك يوم القيامة.

ثالثا : الإسناد يناقض المنهج العلمي

إن الإسناد قضية علمية تتراوح بين الشك والإثبات وليست قضية إيمانية، ومع ذلك فإن الإسناد يناقض المنهج العلمى والتعقل المنطقي.

إن البخارى مثلا عاش فى القرن الثالث الهجرى ومات سنة 256 هـ. أي بينه وبين النبي عليه السلام قرنان ونصف قرن من الزمان. وإذا اعتبرنا الجيل أربعين عاما فان بينه وبين البخارى ستة اجيال (لاحظ أن بيننا وبين عصر محمد على اربعة أجيال فقط). فكيف يستقيم في المنهج العلمى أن تتداول ستة أجيال كلمة ما منسوبة للنبي عبر الروايات الشفهية حتى يأتى من يسجلها بعد النبي بمائتين وخمسين عاما؟ ولنأخذ على ذلك مثلا من أحاديث البخارى ...ونناقشه من حيث الإسناد ومن حيث المتن والموضوع:

ونختار من أحاديث البخارى أهونها على عقلية القارئ التى عاشت على تقديس البخارى بسبب إسناد أحاديثه للنبي (صلى الله عليه وسلم).

تحت عنوان ((باب مباشرة الحائض)) أورد البخارى أحاديث تؤكد أن النبي عليه السلام كان يباشر نساءه جنسيا أثناء المحيض، ونختار منها هذا الحديث بإسناده (حدثنا إسماعيل بن خليل قال أخبرنا عن بن مسهر، قال أخبرنا أبوا إسحاق هو الشيبانى عن عبد الرحمن بن الأسود، عن أبيه عن عائشة قالت: كانت إحدنا إذا كانت حائضا فأراد رسول الله (ص) أن يباشرها أمرها ان تتزر فى فور حيضتها ثم يباشرها، قالت: وأيكم يملك إربه كما كان النبى (ص) يملك إربه)) (صحيح بخارى بحاشية السندى مكتبة زهران مجلد 1 الجزء الاول ص64)

والحديث السابق ينقسم إلى جزئين السند والمتن :

فالسند هو سلسلة الرواة الذين عن طريقهم تم إسناد الحديث إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهم ستة: إسماعيل بن خليل الذى حدث البخارى بهذا الحديث وكان فى جيل أستاذه البخارى. وقد ذكر أن الذي حدثه بهذا الحديث علي بن مسهر الذي لم يره البخارى وعاش فى القرن الثاني، وهكذا تمتد السلسلة إلى أبي إسحق أو الشيبانى، ثم إلى عبد الرحمن الأسود، ثم إلى أبيه، ثم إلى عائشة أم المؤمنين، التى زعموا أنها قالت متن الحديث ونصه.

وأولئك الرواة تسلسلوا عبر الزمن، والبخارى لم ير منهم إلا واحدا هو الذى ادعى أنه حدثه بذلك الحديث. والرواة الماضون الذين عاشوا فى أزمنة متعاقبة لايوجد دليل على أنهم رووا ذلك الكلام، ويستحيل عقلا بالمنهج العلمى إثبات صدقهم في نقل تلك الرواية شفهيا عبر قرنين ونصف قرن من الزمان الملوء بالفتن والإضطرابات، وعبر ستة أجيال اختلفت ظروفهم. وحتى لو تخيلنا أنهم جميعا عاشوا فى نفس الزمن ونفس الجيل فإن احتمال الكذب والنسيان والإضطراب وارد في النقل الشفهى لتلك الرواية عبر ستة أشخاص خلال أربعين عاما، بل خلال أربعين يوما بل ربما خلال أربعين ساعة. وهذا واقع فى الحياة العملية حين نتداول قصة حدثت فى يوم وليلة، فيلحقها التغيير والتبديل، طالما رواها أكثر من راوي، وكل منهم يضفي عليها من عنده بحيث تختلف عن الأصل، فكيف بمئات الألوف من الأحاديث أسندوها للنبى (صلى الله عليه وسلم)بعد موته بقرون ؟

وحقائق التاريخ فى العلم المسمى بعلم الحديث تؤكد ان اختراع الإسناد تم فى القرن الثانى الهجري، حيث تكاثرت الروايات الشفهية وتكاثر الكذب فيها ، فاشترطوا إسنادها عبر رواة سابقين كانوا ماتوا قبلها فيما بين منتصف القرن الثانى إلى عصر النبى (صلى الله عليه وسلم)، أولئك الرواة المذكورون الموتى لم يكن لهم علم بذلك الذى أسندوه إليهم من روايات. وعليه فقد تبارى العلماء فى عصر التدوين، فى بداية عصر المأمون فى تسجيل أسماء رواة كيفما اتفق. وهذا ما تواصلنا إليه خلال ابحاث متخصصة.

ثم وقعوا فى النزاع والاختلاف فى تعديل ذلك الراوي أو تجريحه، تبعا للإختلاف المذهبى والهوى الشخصى بحيث يقول الذهبى فى كتابه المشهور فى « الجرح والتعديل» { ميزان الإعتدال } : «ما اجتمع علماء هذا الشأن على تعديل ضعيف أو تضعيف ثقة» . وقد تأسس علم الحديث والجرح والتعديل على أساس الإختلافات الفقهية والعقيدية والفكرية بين المسلمين فى العصر العباسى وما تلاه.

ونعود إلى البخاري فى باب (مباشرة الحائض) ونُقرر أن متن هذا الحديث قد تكرر في عدة أحاديث أخرى، تنسب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يباشر نساءه في المحيض، وكلها أحاديث كاذبة لأنها تنسب للنبى عليه السلام أنه يخالف القرآن، إذ يقول تعالى: «**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ في المَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَى يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَوَابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ**» [البقرة 222] أي أنهم سألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) عن المحيض، وانتظر النبي (صلى الله عليه وسلم) الإجابة من السّماء فنزلت الآية تؤكد على اعتزال النساء جنسيا في المحيض وعدم الإقتراب منهن حتى يطهرن، ثم يبيح الإقتراب منهن بعد الطهر.

وهنا تناقض جلي بين الآية الكريمة وحديث البخاري الذى جاء ضمن أحاديث أخرى تحن عنوان جنسى مثير يقول (باب مباشرة الحائض). فالقرآن يؤكد ليس فقط على إعتزال النساء فى المحيض ومفهوم أنه الإعتزال الجنسى وليس الخصومة والشقاق، وإنما يؤكد أيضا على عدم الإقتراب منهن جنسيا بأيّ كيفية. والبخاري يؤكد فى أحاديثه على أن النبي كان لا يعتزل نساءه جنسيا فى المحيض. وليس هناك من حل وسط بين القرآن والبخاري فى هذه القضية، بحيث أنك إذا آمنت بالقرآن فعليك بتكذيب البخارى، اما اذا آمنت بحديث البخارى فأنت بالتالي تكذب بالقرآن. ومن هنا كان تأكيد الله تعالى فى القرآن على الإيمان بحديث القرآن وحده، وما عداه ليس محلا للإيمان، وإنما هو قضية علمية قائمة على الشك، والحقائق فيها نسبية وليست مطلقة مثل حقائق الإيمان، وبالتالى فإن تصديق الإسناد هو الذى يجعلها قضية إيمانية بالتزوير.

وعموما فإن علم (الجرح والتعديل) انصب أساسا على فحص الإسناد أو سلسلة الرواة، دون اهتمام يذكر بفحص المتن أو موضوع الحديث نفسه، وقام فحص الإسناد على أساس الهوى المذهبي والشخصى فلم يحدث إطلاقا أن اتفقوا على أن ذلك الراوى ثقة أو أنه ضعيف، لأن من يمتدحه أهل السنة يهاجمه الشيعة وهكذا بين سائر الطوائف والفرق، ونتج عن ذلك الإختلاف في الحكم على كل راوٍ فى سلسلة الإسناد أن صارت الاحكام نسبية، حتى داخل كل فرقة أو مذهب. وبالتالى قسموا الأحاديث حسب درجتها من الثقة والصحة إلى قسمين كبيرين:

[1] الأوّل الحديث المتواتر وهو صحيح بدرجة مائة فى المائة، وقد اختلفوا فيه، فقال بعضهم أنه لايوجد أصلا حديث متواتر مقطوع بصدقه، وقال بعضهم أنه يوجد حديث متواتر واحد وهو حديث (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) وقال بعضهم أنه حديث متواتر ولكنه يخلو من كلمة متعمدا. ورأى بعضهم أن الحديث المتواتر ثلاثة فقط، وارتفع بعضهم بالاحاديث المتواترة إلى خمسة أو سبعة.

[2] أما القسم الثاني من الأحاديث فهى الأحاديث الآحاد. وقد قالوا بأن كل الأحاديث المذكورة فى كتب الأسانيد (السند) هى أحاديث آحاد، أى رواها واحد عن واحد. وهى تفيد الظن ولا تفيد اليقين، لأن اليقين لايكون إلا فى آيات القرآن. وقالوا أن أحاديث الآحاد يمكن العمل بها إذا ترجح صدقها أو إذا اتفقت مع آية قرآنية. ومع هذا فإنه فى عصرنا ـ حيث النفوذ السلفي القائم ـ لن تجد شيخا سلفيا جريئا يشكك في البخاري على أساس أن أحاديثه ظنية تحتمل الكذب كما تحتمل الصدق شأن كل المرويات البشرية التراثية.

ونعود الى الإسناد فى أحاديث الآحاد وقد قسموا احاديث الآحاد (وهى كل الاحاديث فى رأينا) إلى درجات من حيث الصحة من حسن وغريب وضعيف...

وهو بلاشك تقسيم مضحك لأنه يعنى بالنسبة للسند للنبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال هذا الحديث بنسبة 70 % أو قال ذلك الحديث بنسبة 50 % أو 10 %. وذلك لايستقيم مع المنهج العلمي، لأنه إما أن يكون النبي (صلى الله عليه وسلم) قد قال ذلك الكلام، فتكون نسبة إسناده للنبي (صلى الله عليه وسلم) هي 100 %، وإما أن يكون النبي لم يقل هذا الحديث فتكون نسبة إسناده للنبى (صلى الله عليه وسلم) هى صفر فى المائة، ولا توسط بين هذا وذاك.

وبالتّالى فإن المنهج العلمى يستحيل معه إسناد ذلك الكلام للنبى بعد ستة أجيال من الروايات الشفهية، وبعد أن تمّ اختراع تلك السلاسل من الرواة بعد موت أصحابها بعشرات السنين دون أن يعرفوا عنها شيئا. والمنهج القرآنى يتفق مع المنهج العلمي فى ذلك.

رابعا: الإسناد يناقض المنهج القرآنى

إن إسناد قولاً ما للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعنى تحويل ذلك القول أو الحديث او الخبر إلى حقيقة دينية يكون المسلم مطالبا بالإيمان بها والعمل وفقا لأحكامها. وهذا لا يتأتى إلا للقرآن وحده، فالقرآن كتاب محفوظ بقدرة الله تعالى له بداية وله نهاية، ينقسم إلى 114 سورة، وكل سورة تضم آيات محددة مرقمة. والله تعالى يقول للمشركين عن القرآن «**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**» [البقرة 23] وبغض النظر عن موضوع الآية وهو تحدي المشركين بأن يأتوا بسورة مثل سور القرآن فإن الآية تؤكد أن مانزل على النبي هو سور فقط. ولا توجد تلك السور إلا فى القرآن الكريم فقط، إذن ما نُـزِّل عليه هو القرآن فقط. وليس هنالك من وحى آخر يقال عنه وحي السنة عند من يعتقد أن الأحاديث والسُنن كانت وحيا إلاهيا. وليس هناك في الإسلام حديث إلا حديث الله تعالى في القرآن. أما تلك الأحاديث التراثية وأسفارها فلا أول لها ولا آخر .وهي تتناقض حتى في الكتاب الواحد، وربما فى الصفحة الواحدة.

إن إسناد قولا ما للنبي (صلى الله عليه وسلم) وجعله حقيقة دينية هو اتهام للنبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه فرّط فى تبليغ الرسالة، ولم يبلغ بنفسه تلك الأحاديث المنسوبة اليه، ولم يقم بتدوينها وكتابتها كما حدث مع القرآن. لأنّ تلك الأحاديث لو كانت جزءا من الدين ولم يُبلغه الرسول للناس ولم يقم بتدوينه فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) على ذلك لم يبلغ كل الرسالة، وأنه ترك جزءا منها يتناقله الناس ويختلفون فيه إلى أن تم تدوينه بعد النبي بقرون ولا يزالون يختلفون فيه. إلا أننا نؤمن أن النبي عليه السلام قام بتبليغ الرسالة كاملة وهى القرآن ولم يكتم منه شيئا ونزل قوله تعالى يُزكى النبي «**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِيناً**» [المائدة3] فاكتمل الإسلام باكتمال القرآن، بل ومات النبي (صلى الله عليه وسلم) بعدها مباشرة.
وتروي الأسانيد والأحاديث نفسها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نهى عن كتابة أي شئ غير القرآن، وأن ابابكر وعمر وعثمان وعليا قد نهوا عن رواية وكتابة اي حديث منسوب للنبي، ولذلك امتنع تدوين مانسب للنبى (صلى الله عليه وسلم) إلى أن جاءت الدولة العباسية وعصور الفتن والإضطراب العقائدي والمذهبي فتم تدوين أحاديث نسبوها للنبي (صلى الله عليه وسلم) عبر ذلك الإسناد، وهى تحمل كل معالم التناقض مع القرآن وعصر النبي عليه السلام. إلا أن ذلك الإسناد أعطى لها قدسية وحصنها من النقد والنقاش فعاشت حتى الآن بيننا تنشر بيننا التطرف والتخلف وكل مايسئ للإسلام العظيم.

وعليه فإن الخروج من هذا المأزق يحتم إلغاء ذلك الإسناد، أي قطع الصلة بين تلك الأحاديث والنبي عليه السلام، رحمة بالإسلام وتماشيا مع المنطق والمنهج العقلي والعلمي. ثم ننظر إلى متن الحديث وموضوعه في ضوء أنه ثقافة تعبر عن العصور التي تم تدوينها فيها. ثم نبحثها من خلال ثقافة عصرها تاريخيا وحضاريا بما فيها من خطأ أو صواب، أي تصبح تراثا معدوم التقديس، كأي تراث بشري تنعكس عليه أحوال البشر من ارتفاع وهبوط وصلاح وفساد. وإذا نظرنا للبخارى مثلا بهذا المقياس فقط أنصفنا الإسلام ورسول الله عليه السلام، وإلا كنا فى عداد أعداء النبي (صلى الله عليه وسلم) الذين سيتبرأ منهم يوم القيامة [الانعام112 :116 / الفرقان.30 :31]
نقول هذا عن علم ودراسة بما يحتويه البخاري من أحاديث تطعن فى النبي والإسلام، وظلت محصنة من النقد بسبب حماية الإسناد وما اضفاه الإسناد على البخاري من تقديس ورهبة.

خامسا : الإسناد يناقض مفهوم الشهادة

وقف المتهم بالقتل فى قفص الإتهام ونودي على الشاهد الأول، سأله القاضى: هل اعترف أمامك المتهم بالجريمة؟ فقال الشاهد : لم أسمعه بأذني، وإنما أخبرني باعترافه أخي.عندها أسقط القاضى شهادته واستدعى أخاه ليسأله فقال: لم أسمع إعترافه بنفسي وإنما روى لي هذا الإعتراف أبي، فأسقط القاضي شهادته أيضا واستدعى أباه، فقال الأب: لم أسمع إعترافه ولكن روى الاعتراف لى ابي الذي مات أمس. ومن الطبيعى أن يطلق القاضى سراح المتهم ويطرد الشهود لأنهم ليسوا شهودا. حيث أن الشهادة تكون بالسماع الشخصى المباشر والرؤية العيانية المباشرة ...

هذه بالطبع قصة رمزية تؤكد على أن الإسناد عبر أقاويل سماعية خلال عصور متباينة ليس لها أساس ولا يؤخذ بها اي نظام قضائى، فالبخاري لم يعش عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) وكذلك الرواة الذين سبقوه والصحابة الذين عاشوا عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) انشغلوا بالفتوحات والفتن والمنازعات عن كل ما نسبوه إليهم ، وحتى لو رووا أحاديث فمن أين لنا أن نتأكد مما قالوه، وليس بيننا شاهد عاش من عصرهم وبقي حيا قرنين من الزمان، ثم كتب بنفسه ما سمع بأذنيه وما شاهد بعينيه؟ ... وحتى لو فعل ذلك فإن من حقنا أن نتشكك فيما قال بسبب الشيخوخة وضعف الذاكرة «**وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَيَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً**» [الحج 5]

إن الإسناد عبر أجيال من الموتى يناقض الشهادة القانونية، وبالتالي فإنه من الظلم للإسلام أن تقوم تشريعاته وهي أصل القوانين على شهادات زائفة مشكوك في صدقها. ولهذا فإن التقديس الحقيقي للشريعة أن تقتصر على الكتاب الحكيم، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وعلى أساس أن سنة النبي هى في تطبيق القرآن وفق ظروف عصره.

وبالمناسبة نرجع للقرآن في موضوع الإسناد والشهادة ونعطى منه ملمحين :

-1 – فالشهادة في مفهوم القرآن هى الرؤية والسمع بالحواس، وبالمعاصرة والمعايشة، وهي جزء أساسي من تشريع القرآن. وفي الشهادة على الديون يوجب القرآن تدوين الشهادة حتى في أيسر المعاملات «**وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ**» [البقرة 282]. فهل ينطبق تشريع الشهادة فى القرآن وأحكامه على إسناد شهادات منسوبة للنبي فى التشريع وغيره عبر أجيال من الرواة الموتى عاشوا بين عصر النبي وعصر التدوين، وهم لم يروا شيئا ولم يسمعوا شيئا؟

-2 – ونقل القرآن الكريم فى قصة وسورة يوسف إتهام شقيقه بالسرقة، إن يوسف قد رتب اتهام أخيه الشقيق بالسرقة حتى يتسنى له أن يحتفظ به معه، وكان إخوة يوسف في رحلتهم الثانية لمصر قد ضغطوا على أبيهم يعقوب كي يسمح لهم باصطحاب أخيهم معهم، فلما احتجزه يوسف عزيز مصر بتهمة السرقة يئس الإخوة من استعادته فقال احوهم الاكبر «**إِرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**» [يوسف81] أي أن أخاهم الأكبر يقول لهم ليشهدوا بما رأوه من ضبط المسرقات في وعاء أخيهم، وما كانوا للغيب حافظين...وهذه هي الشهادة من أناس عايشوا الحدث وشهدوا بما رأوه، ومع المعايشة والحضور والشهود والمعاصرة فإن هناك من الخفايا التى لايعلمونها...فالشهادة في المفهوم القرآنى أن تشهد بما رأيت وسمعت بنفسك مع الإقرار بأنك لاتعلم غير ما شهدت بنفسك، وما خفي عنك لا يعلمه إلاّ علام الغيوب.

وإذا طبقنا مفهوم الشهادة هذا على الإسناد وضح لنا التناقض الهائل بين الشهادة التي ينبغى أن تقوم على الحق المرئي والمسموع من الشاهد المشاهد وبين الإسناد وهو كذب صريح ليس فيه شهادة أو شهود على الاطلاق، إذ كيف يشهد الميت أو يحكى الحي على ما لم يره وما لم يعش أحداثه؟

سادسا : موضوعات المسند

الإسناد هو سلسلة الرواة والعنعنة وقد عرضنا لها....أما المسند فهو موضوع الحديث من الحديث. والآن نشير إلى موضوعات المسند أو ما جاء به الإسناد إلينا من موضوعات تخالف القرآن والإسلام.

إن الأحاديث كلها تصب فى ثلاثة موضوعات رئيسية وهى (1) الغيبيات (2) التشريعيات (3) الأخلاقيات أو الترغيب والترهيب.

– 1 – فى الغيبيات : أسندوا للنبي أحاديث يخبر فيها عن غيوب الماضي قبل عصره، وعن غيوب المستقبل فى الدنيا، غيوب الآخرة من علامات الساعة ووقائع القيامة، والحشر والشفاعة والعرض وأحوال الجنة والنار. وكلها أكاذيب لأن القرآن يؤكد على أن النبي عليه السلام لا يعلم الغيب، ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما مسه السوء، وإنه عليه السلام لايدرى ما سيحدث له أو لغيره، وأنه لايعلم شيئا عن علامات الساعة أو علم الساعة، وليس له أن يتحدث عن كل تلك الغيبات [الأنعام 50، الأعراف 187 ،188، الأحقاف 9، النازعات 45:42، الجن 27:25 مجرد امثلة].

ويرتبط بالغيبيات ما نسبوه للنبى (صلى الله عليه وسلم) من أحاديث الشفاعة يوم القيامة، وهي تناقض القرآن الذي يجعل الشفاعة لله وحده تقوم بها الملائكة حين تقدم العمل الصالح للصالحين يوم الحساب، أما النبي نفسه فلا يملك لأحد نفعا أو ضرا [البقرة 48،133،354،255، طه 110:109، الأنبياء 26 :28، النجم 26، الزخرف86،ق21، الزمر19، لقمان33:34) ومع ذلك فإن أكاذيب الشفاعة البشرية يوم القيامة قد جعلها الإسناد من المعلوم من الدين بالضرورة مع خطرها الشديد فى تدهور أخلاق المسليمين.

– 2 – في التشريعات: أسندوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يفتي في أمور التشريع، وهذا يناقض حقيقة قرآنية أساسية وهي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا سئل عن أي شئ كان ينتظر الإجابة من الوحي، فينزل عليه الوحي (يسألونك عن كذا فقل لهم كذا) ...ومن تدبر الموضوعات التى سُئل فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) وانتظر الإجابة من السماء يتضح لنا أنه كان يمكنه أن يجيب بنفسه من واقع معلوماته العامة، مثل سؤاله عن الأهلة «**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ**» [البقرة 189] ومثل سؤاله عن موضوعات اليتيم، وقد تكررت آيات القرآن فى الحض على رعاية اليتيم، ومع ذلك كانوا يسألونه عن اليتيم، إلا أنه لم يبادر بالإجابة وانتظر الوحي فينزل الوحى يؤكد ما سبق قوله في رعاية اليتيم كقوله تعالي «**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**» [البقرة 23].

وفي موضوع الظهار– وهو أحد أنواع الطلاق — أصرّت امرأة على أن يفتي لها النبي (صلى الله عليه وسلم) وتعجلت الحكم ورفض النبي و انتظر نزول الوحي ونزل قوله تعالى «**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلىَ اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرْ**» [المجادلة 1] فالمرأه تعجلت وأخذت تُجادل النبي (ص) تَطلبُ منه حُكما فلمّا يئست منه اشتكت الى الله تعالى فنزل الحُكم، وهكذا كانوا يستفتون النبي فلا يفتيهم، وإنما ينتظر حتى تنزل الفتوة وحيا من السماء، كأن يقول تعالى «**وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُل اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنّ**» [النساء 127] لم يقل (قل أفتيكم) بل إن الله تعالى هو الذي كان يفتي و يشرع «**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِي الكَلاَلَةِ**» [النساء 176].

بايجاز ...كانت مهمة النبي (صلي الله عليه وسلم) مقتصرة علي التبليغ دون الافتاء، وحين كانوا يسألونه أو يستفتونه كان ينتظر الإجابة من الوحي حتي في الأمور المعروفة لديه، وكانت سنته هي في تطبيق ما ينزل عليه وحي بإمكاناته البشرية وبإمكانات عصره، هذا ماكان في عصر النبي (صلي الله عليه وسلم) وهذا ما يؤكد أن للإسلام مصدرا وحيدا هو القرآن. أما نحن فمن حقنا أن نجتهد في تطبيق تشريع القرآن وفق ظروف عصرنا و اجتهادنا يقبل الخطأ والصواب ونحن مسؤولون عنه، وبهذا يعلو الإسلام فوق الزمان والمكان محفوظا بتشريعه إلى قيام الساعة وبعيدا عن أخطاءنا وخطايانا ... إلا أن الإسناد نسب للنبي تشريعات تخالف القران مثل الرجم و حد الرده والحسبة وجعل من حق الحاكم أن يمتلك الأرض ومن عليها ... و بالإضافة الى اختراع الإسناد لتلك التشريعات المخالفة فان العصر العباسي اخترع مفهوما جديدا لإلغاء التشريعات القرآنيه تحت دعوى النسخ. مع أن النسخ في القرآن واللغة العربية معناه الإثبات والكتابة وليس الحذف والإلغاء (راجع كتبنا عن : النسخ ، وحد الردة، والحسبة، والقرآن و كفي مصدرا للتشريع).

– 3 – في الأخلاقيات: نسبوا للنبى (صلى الله عليه وسلم) أحاديث فى الترغيب والترهيب أفسدت أخلاق المسلمين إذ كانت ترتب الجزاء العظيم على مجرد كلمة أو قراءة سورة أو صلاة ركعتين، وبمجرد أن يقول الإنسان ذلك أو يفعله فقد ضمن الجنة مهما ارتكب من ذنوب وآثام، وبالتالى فعليه أن يسعى فى الأرض بالفساد ثم يضمن الجنة بمجرد أن يقول لاإله الا الله...وهذا يخالف منهج القرآن الأخلاقى الذي يجعل الجنة من نصيب الذين آمنوا وعملوا الصلحات، أي حفلت حياتهم بالإيمان والعمل الصالح النافع وليس مجرد كلمة أو تبرع من مال حرام وسط حياة حافلة بالآثام.

وعن طريق أحاديث الغيبيات والتشريعات والأخلاقيات أقام الإسناد دينا جديدا مخالفا للقرآن مناقضا له، وأكسب ذلك الدين المخالف قدسية حين نسبه للنبى.

ومن أسف فإنه إذا تعارضت 150 أية قرآنية كلها تنفى شفاعة النبي مع حديث الشفاعة فى البخاري فإن الناس ينحازون للبخاري ضد القرآن ...اليس كذلك ؟

سابعا :التراث المقدس وغير المقدس

ما سبق ينصب أساسا على التراث السني الذي أسنده رواة السنة للنبي (صلى الله عليه وسلم) فأصبح ذلك التراث السني دينا مقدسا.

إلا أن الشيعة لهم أيضا تراثهم المقدس الذي أسندوه للنبي (صلى الله عليه وسلم) وإلى علي وذريته وأصحاب القداسة عندهم من الأئمة. وأصبح ذلك التراث أيضا دينا مقدسا مخالفا للإسلام ولكن يقف في موقع الخصومة للتراث السني المقدس لدى السنيين بسبب الخلاف السياسى العقدي والحركي.

ثم جاء التصوف إبنا للتشيع متخففا من طموحاته السياسية ومن الطعن فى كبار الصحابة، فأعرض عن السند، ولم يهتم باختراع سلسلة الرواة. إذ يقوم التصوف فى عقيدته على الإتحاد بالله وحلول الذات الإلهية فى نفس الشيخ الصوفي، وحين تشرق أنوار المعرفة الإلهية فى داخله . بزعمهم . ينطق بالعلم اللدني، وحينئذ فليست هناك حاجة للرواة لأنه جلس بزعمهم مع الله فى الحضرة الإلهية.

ومن هنا كان الصوفي فى العصر العباسى الثانى يقول (حدثنى قلبى عن ربي). وامتلأ كتاب {إحياء علوم الدين} للغزالى بأقاصيص وأقاويل من هذه النوعية، أو أن يقول الغزالى : (أوحى الله لبعض الصالحين) هذا بالاضافة الى أحاديث نسبها للنبى (صلى الله عليه وسلم) بدون إسناد وقام العراقي فى تخريجها باثبات انها (لا أصل لها) أى لم يذكرها غير الغزالى، أو بعبارة أخرى إخترعها الغزالى اختراعا. ثم أضاف الصوفية لتلك الأكاذيب إختراع المنامات، أي يزعم أحدهم أنه رأى النبي في المنام فقال له النبى كذا. وتحفل كتب الصوفية بهذه المنامات، ثم أكاذيب (الهواتف) أي يسمع الصوفي هاتفا يقول له كذا...وفى العصر المملوكي كانت المنامات تغلف التراث الصوفي وتؤثر فى الحياة المملوكية سياسيا واجتماعيا وثقافيا ودينيا، حتى كان المألوف أن يدعي أحدهم أنه يرى النبى (صلى الله عليه وسلم) يقظة وليس فقط فى المنام ،وأشهر من ادعى ذلك كان السيوطى، وقد ذكر ذلك الشعرانى فى ترجمته له فى الطبقات الصغرى.

بايجاز نقول: إن الإسناد حول التراث السنى والشيعى إلى أديان مقدسة زورا وبهتانا وشجع الصوفية على الإفتراء على الله ورسوله بدون إسناد. والإسناد مع قداسته المزعومة فإنه لايصمد أمام النقد لأنه يحمل أوزارا من التحريف والأخطاء الموضوعية تؤكد حاجته الشديدة لتلك القدسية لتحميه من سهام النقد والإعتراض.

إلا أن التراث العقلى (الذى يستحق الاحترام حتى ولو اختلفنا معه) لم يكن محتاجا للإسناد أو القدسية. ولذلك ظل تراث المعتزلة والمفكرين منسوبا إلى أعلام تلك الطوائف العقلية، لم يحاول الجاحظ ـ مثلا ـ أن ينسب آراءه للنبى (صلى الله عليه وسلم) بل نسبها لنفسه وإلى من قالها من زملائه وأصدقائه، وإذا قرأت الجاحظ في (البخلاء) و(البيان والتبيين) وباقي رسائله وجدت رائحة الثقافة الجاحظية وعصره وبيئته وازددت له احتراما لأنه كان صادقا مع نفسه، وقد مات الجاحظ سنة 255 هـ. وعاش معه فى نفس العصر البخارى (ت256 هـ). الذى نسب ثقافة العصر العباسي للنبي (صلى الله عليه وسلم) عبر ذلك الإسناد المشئوم فأوقع بالنبى (صلى الله عليه وسلم) والإسلام أفدح الأضرار.

ومع الأسف فإن الغلبة لم تكن للجاحظ والمعتزلة ومنهجهم العقلي، وإنما كانت . بسبب الظروف السياسة . لمن كان يسميهم العصر العباسي الأول بالحشوية، أى الذين يحشون عقولهم بأسانيد كاذبة منسوبة للنبى (صلى الله عليه وسلم)، ويحاولون نشر آرائهم بهذه الطريقة.

لقد انحاز المأمون ثم المعتصم والواثق للمعتزلة. وحدثت فتنة خلق القرآن التى اضطهد فيها ابن حنبل، ثم جاء الخليفة المتوكل وكان حانقا على المعتزلة وزعيمهم ابن الزيات، فقتله وانحاز للحشوية (أصحاب الحديث والسنن) وتعصب لهم وأرسل دعاتهم في الآفاق لنصرة السنة فيما يحكي ابن الجوزى فى {المنتظم}. ودخلت الدولة العباسية فى دور الضعف واحتاجت أكثر إلى إخضاع العوام بالدين، فازداد دور الشيوخ من الفقهاء ثم الصوفية، وكي يتم للشيوخ إخضاع العوام كان لابد من الإستناد إلى مرجعية دينية تكون لافتة، يشيرون إليها دون مناقشة، وقام الإسناد بهذه المهمة. وبالتدريج تعود الناس على الخضوع بمجرد أن يقول لهم الشيخ روي أن النبى (ص) قال كذا. وأصبح اختراع الأحاديث يحقق غايات سياسية و مذهبية واجتماعية طالما يجعله الإسناد يحظى بتقديس العوام. ثم بمرور الزمن أصبح الشيخ يقول بكل ثقة (قال صلى الله علبه وسلم كذا) كأنه سمع ذلك من النبى (صلى الله عليه وسلم) بنفسه ودون إسناد، ودون ذكر أنها رواية قالها أشخاص، قد يخطئون وقد يصيبون، وهذا ما تسمعه حتى الآن من شيوخ المواصلات في القاهرة عن الذى يبنى مسجدا ولو كمحفص قطاة.

ثم ظهر فى عصرنا ـ عصر الصحوة السلفية ـ إتجاه جديد بين الجماعات السلفية الحالية وهو اختراع أحاديث تخدم وجهة نظرهم مثل حديث (من اكرم شرطيا اهانه الله) وقد عقب بعضهم على ذلك الحديث المخترع فى هذه الأيام قائلا: كيف تستحل الكذب على الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟ فقال الشيخ المتطرف أنه لايكذب على النبى وإنما يكذب للنبي. نفس الحجة القديمة للذين كانوا يكذبون على النبي محمد عليه السلام ...

أي إن اختراع الأحاديث لايزال ساريا.

أخيرا : بين الحديث والسنة

ويبقى السؤال الاخير ،هل تلك الاحاديث هى سنة النبى عليه السلام ؟ هنا نضع بعض الحقائق القرآنية والحقائق التراثية.

1. معنى السنة فى القرآن هو المنهج أو الطريقة وذلك فيما يخص تعامل الله تعالى مع المشركين. كما أن معناها هو التشريع الإلهى، وبالمعنيين فإن السنة فى القرآن تأتى منسوبة لله، أي سنة الله، يقول تعالى فى تشريع خاص بالنبى (صلي الله عليه وسلم) «**مَاكَانَ عَلَى النَّبِي مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ، سُنَّةَ اللهِ فِي الذِّينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**» [الأحزاب 38] وفي الآية الكريمة يتضح أن «فرض الله» يعني «سنة الله» يعني «أمر الله» هي «شريعة الله» أي أن السنة معناها الشرع.

2. وهذا يتفق مع المعنى اللغوي لكلمة السنة، تقول ((سن قانونا)) أى شرع قانونا، وإذا تم سن القانون أصبح شريعة واجبة التنفيذ.

3. وهذا أيضا يتفق مع المعنى الفقهي لمصطلح ((السنة العملية)) إذ تعني السنة العملية العبادات من الصلاة وزكاة وحج وصيام.

4. وفي كل ذلك فإن الله تعالى هو صاحب التشريع الذي نزل فى القرآن الكريم، والنبي عليه السلام هو القدوة لنا فى تطبيق ذلك التشريع، لذلك يقول تعالى «**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَاليَوْمَ الأَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**» [الاحزاب 21] لم يقل كان لكم فى رسول الله سنة حسنة، لأن السنة هي سنة الله، أما النبى عليه السلام فهو القدوة الحسنة فى تطبيق سنة الله وشرع الله.

5. إلا أن بعض فقهاء التراث يقولون أن السنة العملية هي العبادات التى أشرنا إليها، أما السنة القولية للنبي فهي تلك الأحاديث التى أسندوها إليه بعد موته بقرون فيما يعرف بكتب الصحاح وغيرها. وهنا نختلف معهم، لأن السنة القولية للنبى عليه السلام هى ما ورد فى القرآن فى كلمة «**قُلْ**» التى يتميز بها القرآن.

6. وقد تكررت كلمة «**قُلْ**» للنبي فى القرآن (332) مرة ... وكانت الموضوعات التى ترددت فيها كلمة «**قُلْ**» تشمل كل ما يحتاجه المؤمن من أمور الدين ، وبعضها يؤكد ما جاء فى القرآن أيضا بدون كلمة «**قُلْ**». وكان النبى عليه السلام مأمورا بأن يقول ذلك القول المنصوص عليه في القرآن كما هو دون زيادة أو نقصان، إذ لايملك أن يتقول على الله تعالى شيئا فى أمر الدين «**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلَ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**» [الحاقة 44 :47]. باختصار أن السنة القولية للنبي هي كلمة «**قُلْ**» لأن السنة تعنى الشرع المفروض اتباعه.

7. ويقولون أن تلك الأحاديث هي مصدر المعرفة بالصلاة والعبادات. وهذا خطأ ظاهر لأن تلك الأحاديث أقاويل، والسنة هي طريقة تأدية للعبادة وكان معروفا تأدية العبادات ليس فقط قبل عصر البخارى وغيره، بل كانت معروفة قبل نزول القرآن، إذ كانت هي الملامح الأساسية لملة إبراهيم التى أمر الله تعالى النبي والمسلمين باتباعها حنفاء، بل أن تلك الأحاديث التى رويت فيما بعد النبى بقرون لم تتعرض بالتفصيل لكيفية تأدية الصلاة. وأكثر من ذلك أنها تشوه الصلاة وتشكك فيها.

8. ومن الطبيعى أن النبي عليه السلام وهو يقيم دولة وينشئ أمه ويواجه مكائد أعدائه أن تكون له أقوال وتعليمات، كما كانت له تطبيقاته في تنفيذ شرائع القرآن خارج العبادات، مثل أعداد الجيش والقوة الحربية. وذلك كله يدخل ضمن التاريخ والسيرة، وليس ضمن الدين الذي يعلو فوق الزمان والمكان.

9. والملاحظ أن العصر العباسى حين قام بتدوين سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) بأثر رجعي فإنه تجاهل ما ينفع الناس منها، لأن ذلك الذي ينفع الناس كان ضارا بالحكام من الخلفاء المستبدين، وقد قامت دولة النبي الإسلامية على أساس الشورى أو الديمقراطية المباشرة حيث يحكم الناس أنفسهم بأنفسهم، وحيث كان الناس مصدر السلطة والقائمين أيضا بالسلطة. وعاش أهل المدينة على ذلك فى حياة النبي، وتركهم النبي يحكمون أنفسهم بأنفسهم دون أن يعين لهم حاكما ، والسيرة الحقيقية للنبي عليه الصلاة والسلام كانت تؤكد ذلك من خلال أكثر من خمسمائة خطبة النبى (صلى الله عليه وسلم) في المدينة، ومن خلال مجالس الشورى التى تحدث عنها القرآن الكريم فى الآيات الاخيرة من سورة النور و سورة المجادلة وسورة النساء.

وتلك الديمقراطية المباشرة فى عهد النبي عليه السلام كانت تناقض تماما الإستبداد العباسي حيث يملك الخليفة الأرض ومن عليها دون حسيب أو رقيب، ولذلك أهمل التدوين العباسي أكثر من خمسمائة خطبة للنبى عليه السلام والمئات من مجالس الشورى ... واستبدل بذلك تأليف تشريعات وسيرة تتفق مع ثقافة العصر العباسى، ثم قام الإسناد بتحويل هذه الثقافة العباسية الى دين عن طريق الإسناد... وبمرور الزمن أصبحت تلك الثقافة العباسية مقدسة لايجرؤ احد على نقد مصادرها من كتب (الصحاح) .

والدليل على قداساتها المترسبة فى القلوب والعقول هو تلك الرهبة التى يحس بها القارئ لهذا المقال.